سراي بيت الدين

والانفجار فيها

سراي بيت الدين من اكبر القصور في الشرق واجملها زخرفاً وافخمها بناء شادها الامير بشير الشهابي الكبير صهراً لهُ . ولما انشئت متصرفية لبنان ابتاعتها الدولة سنة ١٨٦٠ من زوجتهِ وجعلتها مقرًّا لمركز المتصرفية وخصت دار الحريم منها بسكن المتصرف وجعلت البناء الخارجي ثكنات للجنود . وقد بنيت هذه السراي الجميلة والاثر الشرقي الفخم بنكبة هائلة شوهت بعض محاسنها . والى القراء خلاصة تفصيل الحادثة على ما بعث بهِ مكاتب المقطم اللبناني الخصوصي وكان في دير القمر . قال

« استيقظنا من نومنا الساعة السادسة من صباح ١٩ يوليو على صوت يدوي كانهُ الرعد القاصف فظننّاهُ لاول وهلة قصف لغم من الالغام التي تستعمل هنا لنسف الصخور . ولكن دوي هذا الانفجار كان شديداً خلافاً للعادة حتى تكسر زجاج شرفة المنزل الذي نحن فيهِ . فاسرعنا الى الشرفة فشهدنا دخاناً كثيفاً منعقداً فوق سراي بيت الدين ومتصاعداً من جهتها الغربية التي تطل على ثكنات الفرسان الدراغون . ولم تكن الاَّ بضع دقائق حتى احتجبت بلدة بيت الدين عن الابصار وراء حجاب كثيف من الدخان لم ينقشع الاَّ بعد نصف ساعة

« فاسرعت مع من اسرع الى بيت الدين واستأذنت ضابطاً في الدخول الى ميدان السراي لان الدخول اليها كان ممنوعاً فاذن لي فسرت توًّا الى المكان الذي حدث فيهِ الانفجار فرأيت قسماً من الجناح الجنوبي اكواماً من الانقاض وفي الميدان الخارجي كثير من الحجارة المبعثرة والاشجار المقلعة . وولجت السراي وتفقدتها غرفة غرفة فوجدت بعض نقوشها الجميلة ساقطاً وسقوفها المذهبة متشققة

« ورأيت امام مدخل السراي الخارجي اعمدة قد تكسر بعضها وجانباً من بلاط الدار الخارجي قد قلع من مكانهِ وتناثر في عرصة الدار وبعض اشجار الجنائن التي تحيط بالسراي قد قلع من مكانهِ ورمي على ابعاد متفاوتة وابصرت في احدى الغرف رجلاً سقط حجر كبير على ساقهِ فكسرها وهو يئن محتضراً

« وقد حدث هذا الانفجار في مخزن البارود وكان فوق المدخل الموصل الى ميدان عرض الجنود فحطَّم ذلك المدخل التاريخي المشهور واطار قطع الحديد منهُ وبددها وقلع حجارتهُ

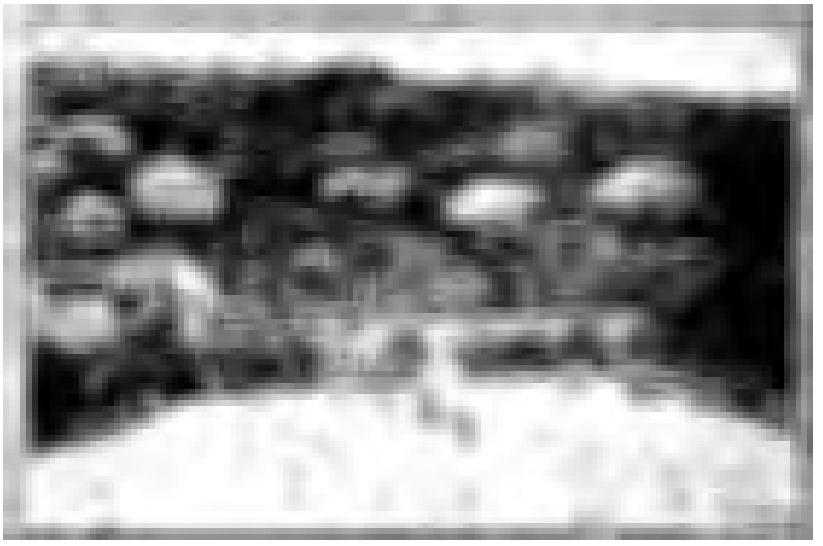

مخزن البارود قبل انفجاره والصورة قديمة

مخزن البارود بعد انفجاره حيث الرجال وقوف

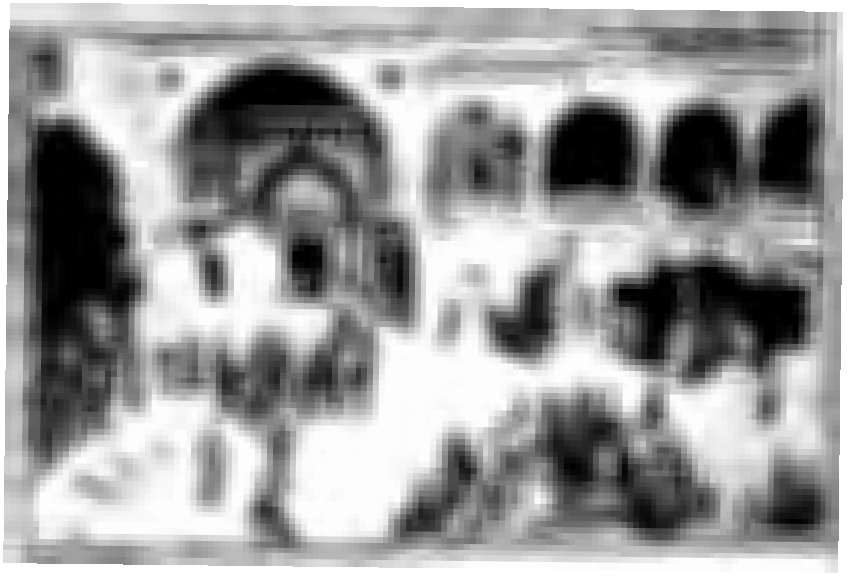

السراي الداخلية والباب الكبير والمتصرف يقوم بأمر خارج لاستعراض الجنود

السراي الداخلية جهة الرواق الكبير والجنود تؤدي السلام للمتصرف

ورماها الى ابعاد شاسعة ورأيت قطعة من حديد السقف (كمرة) اطارها نحو ربع ميل والقاها في صخر الاكمة وقد التوت على نفسها التواء الافعى . ويقال انهُ كان في المخزن اربعون برميلاً من البارود وكثير من الديناميت والخرطوش » . انتهى

ولما كتبنا سيرة الامير بشير الشهابي الكبير منذ ثماني سنوات في المجلد التاسع والعشرين من المقتطف قلنا في وصف هذه السراي ما نصهُ

ومما يشهد لهُ ايضاً بحسن الذوق وصفاء الذهن ومحبة الابهة والجاه وما شاكل من لوازم الامارة بناؤهُ الدار البديعة في بتدين (بيت الدين) التي لم تزل حتى الساعة داراً لحكومة لبنان . قال الكولونل تشرتشل في هذا العدد ما تعريبهُ « وبلغ الامير سن الكهولة السن الذي تزري فيهِ قوة الشباب بضعف الشيخوخة وتبلغ القوى العقلية والادبية والجسدية اوجها من النمو والارتقاء في من كان صحيح الجسم قوي البنية . ورأى ان الزمان قد صافاهُ واناله كل ما تطيب بهِ الحياة وتسعد الايام وان دخل امارتهِ زاد زيادة تسهّل لهُ العمل بما فُطر عليهِ من اكرام الضيوف مهما كانت عدوم الخُلق الذي يمتاز بهِ المشارقة و يشترك فيهِ ملوكهم وصعاليكهم وينتشر منهُ البهاء في القصور والاكواخ ويرفعها كلها من وهدة الانحطاط الادبي الذي انحطّت اليهِ بما استولى عليها من العادات الفاسدة والشرائع الظالمة التي تسحق اشرف عواطف النفس وتخمد انفاس المطالب النبيلة من صدور ابنائهِ . وانهُ حاز من الشهرة ما اخرس السنة الوشاة واطفأ نار الحسد من افئدة الاحزاب المعادين والقى الرعب في قلوب الدائنين منهُ والقاصين وصارت كلمتهُ اقيم الناس وانفعهم في كل البلاد المجاورة من دور الولاة الى مغارب العرب . وان الوالي الاكبر الذي بيدهِ تدبير الامور في بلاد الشام كلها صار صديقاً لهُ بل صار حليفاً يجري على حسب مشيئتهِ — لما رأى ذلك كلهُ وقف بين اندادهِ ومناظريهِ كأنهُ طود من الاطواد لا تنالهُ نوائب الدهر بمكروه

« ولا غرابة والحالة هذه ان تطمح نفسهُ الى انشاء قصر فخم مثل قصور الملوك يكون عنواناً لمجدهِ ومظهراً لما فُطر عليهِ من الكرم وحب الابهة فاختار قنة بيت الدين المشرفة على دير القمر مقرّاً لهذا القصر » . واستطرد الكولونل تشرتشل الى وصف هذه القنة والقصر الذي بناهُ الامير بشير فقال ما خلاصتهُ

اختار الامير لقصره اكمة مواجهة لدير القمر مركز حكومة لبنان ومفصولة عنها لكي لا يكون مجاوراً للشايخ النكدية الذين كانت دير القمر في سهمهم . وكانت تلك الاكمة خالية من العمارة والزراعة ما عدا بعض اشجار من السنديان لكن تربتها كانت جيدة فلم يمض عليها

وقت طويل حتى البستها يد الزرّاع ثوباً سندسياً يدهش النواظر ويسر الخواطر مثل غيرها من ربى لبنان فنقبت ارضها وجعلت جلالاً متدرجة الواحد فوق الآخر تمتد وتنعطف حسب شكل الاكمة وغُرست فيها اغراس التوت والزيتون والعنب والتين الى ان تصل الى اعلاها حيث الارض صخرية جرفت السيول ترابها فتعذر نمو النبات فيها وهناك تشرف الاكمة على ما حولها ويرى منها بحر الروم وو عن بعد وتنبسط دير القمر امامها كأنها صورة رسمت في القرطاس لتبيّنها العين بيتاً بيتاً

هذه هي التلة التي اختارها لقصره ولم يكد يشرع في البناء حتى تملكتهُ الرغبة فيهِ فقضى اربعين عاماً يبني ويوسع ويزخرف وهو لا يكلُّ ولا يمل فمهّد ميداناً رحباً يسع مئات من الفرسان وبنى في جانبهِ الواحد اصطبلات لخمس مئة جواد واقامهُ في الجانب الاخر على قناطر ترفعهُ فوق شاهق عمودي فتزيد منظرهُ جمالاً ومهابةً . وفي طرف هذا الميدان درج من الرخام يوصل الى مقاصير رحبة ودور فسيحة تظن ارضها وجدرانها مزوقة بالادهان وما هي الاَّ قطع من الرخام الملون نظمت على اشكال مختلفة افرغ فيها الصناع اقصى مهارتهم حتى جاءت قرةً للعيون في اشكالها واوضاعها واتساق الوانها . فجاء البناء بزخارفهِ آية من آيات الصناعة يبهج النواظر ويسر الخواطر ولكن بقي شيء يعوزهُ وهو وجود الماء والخضرة مع ذلك الشكل الحسن وكانت الطبيعة قد جادت بشيء منهُ لكنهُ كان قليلاً لا يروي غليلاً فعزم ان تساعدها يد الصناعة وتأتي بالماء ولو من امد بعيد

وهنا وصف تشرتشل كيفية جلب الماء من تحت عين زحلتا وقال انهُ عمل في جرهِ اكثر من ثمانين الف نفس من اهالي لبنان ثم قال ولم يكد الماء يبلغ بيت الدين حتى وجّه الامير عنايتهُ الى انشاء حمام يكون منقطع النظير في جمال نقشهِ وتوزيع مياههِ فجاء بالصناع من دمشق وهم من امهر الناس في صناعة الرخام فابدعوا ما شاؤوا في هندستهِ وزخرفتهِ . انتهى

والظاهر من تاريخ الامير حيدر وتاريخ الاعيان ان الامير بشيراً انما جرَّ ماء نبع القاع المجاور لنهر الصفا الى بتدين حينئذٍ لانهُ كان في دارهِ نحو ثلاثة آلاف من الاعوان والخدم عدا الخيل والبغال ولم يكن الماء كافياً لهم . وقرَّظ بطرس كرامة وحول الماء بموشح من ابلغ ما نظم من نوعهِ قال فيهِ

صاحِ قد وافى الصفا يروي الظما بشراب كوثريّ العسلِ
واقض الشهد في روض الحما جلا الغم ويريء الانفسِ

دور

هذا الفؤاد منهُ حين راق فارانا ماؤهُ ذوب اليقين
نزَّه القلب عن الهم وراق بسنا صافي صفاهُ كل عين
نثر الدرَّ بفيضٍ واندفاق وسقى الوارد اهنى الاطيبين
قد جرى عذبًا فاغنى الندما بزلالٍ عن رحيق الاكؤس
وعلى الاغصان القى النغما فزهت مثل ندامى العرُس

دور

جاء باسم الله مجراهُ الى بيت دين المجد منقاداً مطيع
كانفجار الصبح يبدو من علٍ ذلك السفح الى الروض البديع
وتباهى جاريًا يعلو على كل طودٍ شامخ الانف منيع
مُذ ثنت منهُ السواقي وظا دافقًا كالعارض المنبجس
فغدا بالخصب يزهو منعما كل ربعٍ مقفرٍ متدرس

دور

دار في دارٍ التي مثل العريس يتهادى سيفي رداء جوهري
حولهُ السرو كعشاقٍ تميس في رداء من حريرٍ اخضر
تبتغي لثم محياهُ النفيس والحيا يمنعها بالنظر
خلتهنَّ قائماتٍ خدَّما حولهُ منعطفات الاروُس
وعليهِ ساهرات هيَّما تلتوي اعناقها بالنعس

والموشح طويل فيهِ خمسة وعشرون دوراً

ولم يكد يتم جلب الماء الى بيت الدين حتى اشتدت رغبتهُ في البناء والزخرفة فظلَّ اربعين سنة ينشئُ البناء بعد البناء ويأتي بالبنائين والمرخمين والنقاشين من دمشق وحلب. واقام المقاصير الكبيرة يتلو بعضها بعضاً ويرصف بعضها بالمرمر والفسيفساء وكان يشارف هذه الاعمال بنفسهِ ويخاطب رؤساء العمال لا كما يخاطب الرئيس المرؤوس بل كما يخاطب العالمُ الصانع الماهر. وكثيراً ما كان ينتقد شيئًا من عملهم ويشير بتغييره فلا يلتفتون الى مشورته بل يبينون لهُ وجه الخطإ فيها فيسرُّ بذلك ولا يسأءه منهُ. ودام على هذا المنوال الى ان صارت سراي بتدين اعظم مباني جبل لبنان وبنى قصور اولادهِ وغرس حولها الحدائق والجنات لكن لم يقدَّر لهذا الصفاء ان يدوم طويلاً

و بناه السراي يمتد من الجنوب الى الشمال فيرى الداخل اليها من الجنوب ميداناً واسعاً وهو الذي نسيف بابهُ وقد رسمنا هذا الباب قبل نسقهِ و بعدهُ في الصورتين الاولى والثانية والى يمينهِ امكنة جديدة للجنود وامامهُ السراي الخارجية و بعدها ساحة فيها نوفرة كبيرة ثم السراي الداخلية وقد رسمنا بابها و بعض ارونقها في الصورتين الثالثة والرابعة و بعدها سراي الحريم التي يقيم فيها متصرف لبنان . والظاهر ان القصر الذي اصاب السراي طفيف وقد بادرت حكومة لبنان الى اصلاحهِ

باب تدبير المنزل

قد فتحنا هذا الباب لكي نشرح فيهِ كل ما يهم اهل البيت معرفتهُ من تربية الاولاد وتدبير الطعام واللباس والشراب والمسكن والزينة وغير ذلك مما يعود بالنفع على كل عائلة

النظافة

نظافة البيوت

ما هي البيوت

يراد بالبيوت في هذه المقالة الاماكن التي يأوي اليها الناس و يتخذونها لهم مبايت في الليل ومساكن في النهار فنعم احقر الخصاص والاكواخ واحقر الصروح والقصور ونتناول ما يكون منها مصنوعاً من الشعر والصوف والطين والقصب والجلد وما يبنى من الخشب والحجر والحديد وغيرهِ من المواد التي يختلف استخدامها لبناء البيوت اختلاف اربابها في درجات التمدن والتهذيب وتفاوتهم في الغنى والفقر

في هذه البيوت يحلو للناس المكث و يطيب المقام واذا غابوا عنها فاليها يحن الحنين و بها يشتد الهيام وعليها تعاد التحية و يستزاد السلام . واذا رأيت مقيماً يعز وطنهُ و يجاهر في محبتهِ لهُ وسمعت مغتربا يصبو الى بلادهِ يملأ الحنين والارتياح و يردد ذكراها ترديد ملتاع ملتاح فاعلم ان كليهما يريد بوطنهِ و بلادهِ بيتاً ولد فيهِ ودب ونما وشب او داراً نزلها باهلهِ وذوي قرباهُ وفيها قضى معهم زماناً كلما ذكرهُ حن شوقاً الى ذكراهُ . اذاً البيت مهب نسيم البشر ومطلع نور الانس ومجلى قرة العين ومجتنى طيب النفس . تحت سقفهِ يصح الماء و يعتل